مجلـــة كليـــة التربيـــة طرابلـــس

Journal of the Faculty of Education Tripoli

عناصر الأسلوبية عند ابن الأثير: دراسة في خصائص التركيب بين التراث والمدرسة الأسلوبية

مروة إغريبيل خليل الكاسح

محاضر مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب - جامعة إجدابيا، إجدابيا، ليبيا

البريد الإلكتروني للمؤلف المكلف بالتواصل: gamilaagrebel@gmail.com

Article history

Received: Month Nov, 2025 Accepted: Month Dec,2025

الملخص:

يقوم هذا البحث على بيان أن مفهوم الأسلوبية ومبادئها كانا حاضرَين لدى علماء اللغة والأدب السابقين، لاسيما ابن الأثير في كتابه (المثل السائر)، وأن مفهوم الأسلوبية ومبادئها-إن كانت جديدة في اللسانيات الغربية-فليس كذلك في الفكر اللغوي العربي، فقد تحدث ابن الأثير حديث العالم الخبير عن مبدأ الاختيار والتركيب والانزياح الذي يسميه (العدول) بنحو ما تحدث عنها علماء الغرب، وزاد عليهم ، وذلك لم يكن مجرد تنظير، بل قرن حديثه عنها بالتطبيق العملي من آيات الذكر الحكيم ونماذج من شعراء مفلقين.

مفاتيح البحث: الأسلوبية – الاختيار – التركيب – الانزياح – العدول.

Stylistic Elements in Ibn al-Athir: A Study of Structural Characteristics between Heritage and the Stylistic School

A B S T R A C T:

This research is based on explaining that the concept of stylistics and its Principles were present among previous linguistic and literary scholars, specially Ibn al-Atheer in his book (The Walking Proverb), and that the concept of stylistics and its principles If new In Western linguistics are not the same In Arabic linguistic thought, as Ibn al-Atheer spoke The expert scholar's talk about the principle of selection, composition, and displacement, which he calls (al-adul), in the same way as Western scholars talked about It, and he added to them that his talk was not just theorizing, but rather he linked talk about It with practical application from verses of the Wise Qur'an and examples from fabricated poets.

Keywords: Stylistics – selection – composition – shift – modification

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين. فإن التراث العربي اللغوي – كما لا يخفى – منجم غني؛ لما فيه من لغويين وأدباء بارزين امتازوا بفكر قادٍ وذكاء حاد أهلهم للبحث عن المعاني الدقيقة واستخراجها، والوقوف على خصائص العربية ونكت أسرارها، ما جعلهم محط إعجاب وتقدير كبيرين عند علماء اللغة الغربيين. تقوم فكرة البحث على عرض نتاج التراث مقابل ما هو سائد في المدارس اللغوية الغربية، ولاسيما المدرسة الأسلوبية؛ لئلا يكون البحث العلمي في هذه الموضوعات أسيراً للماضي، ولمعرفة أين ما قاله الأسلاف – الذين نُكِبُّ لهم التقدير كله – مما قرّره الغربيون في مدارسهم الحديثة. وقد جعلتُ من كتاب "المثل السائر" لابن الأثير ميداناً لبحثي، فقد لفت انتباهي – من خلال قراءتي في تراثه – ما جاء في كتابه من إشارات ذات صلة بمفاهيم الأسلوبية الحديثة، ووجود بذور صالحة تكاد تطابق نتاج تلك المدرسة التي نشأت على يد أب الأسلوبية شارل

بالي، مستولدة من النظرية اللغوية الحديثة التي أرسى أصولها أستاذه أب اللسانيات فرديناند دو سوسير (أبو العدوس، 2006، ص 31، 38، 42–43، 72–73؛ الفضل، 1985، ص 18؛ عبد المطلب، 1984، ص 175).إذ إن المدرسة الأسلوبية قد قامت على ثلاث مقولات هي: محور الاستبدال، ومحور التوزيع، ومحور الانزياح (أبو العدوس، 2006، ص 108–110، 41–42)، وقد تحدث ابن الأثير عن هذه المقولات حديثاً قريباً مما هو مذكور عند الأسلوبيين، ما جعلني أقول: إما أن قضايا اللغة أمر فكري مشترك بين الشعوب تتوارد فيها الخواطر والأفكار، وإما أن الدارسين الغربيين قد أفادوا من تراثنا وتنكّروا له.

ولما وجدتُ مادة علمية غنية تخص الأسلوبية، اخترتُ دراسة هذه المقولات – والمراد بالمقولة في الدراسات اللغوية الحديثة: "كل تصور جامع لأشتات أو أشكال متباينة تتناسق في صُلبه" (في الأسلوب والأسلوبية، ص 144) – لمعرفة حجم الجهد الذي بذله علماؤنا في هذا الشأن.

وتعود أهمية دراسة هذا الموضوع في التراث إلى لفت الأنظار إليه، فهو كنز لا يزال ينتظر من يستخرج مكنونه، على الرغم من الدراسات العديدة والمتنوعة التي بحثت فيه، فثمة آفاق للبحث في جهوده اللغوية لما تطرق إليه، وذلك من خلال فحصها وربطها بما يُتناول في مختلف الدراسات المعاصرة؛ فقد حوت تلك الجهود نواة مهمة قامت على عناصرها المدارس اللغوية العربية المختلفة، كالمدرسة البنيوية، والمدرسة التوليدية التحويلية، اللتين كان لابن الأثير وللنحاة والأدباء العرب الأوائل صدى فيها، فضلاً عن المدرسة الأسلوبية ونظرياتها، على ما يُرى في هذا البحث؛ فالأمم بعضها من بعض، بل إنني أزعم واثقة أن الأسلوبية ما هي إلا بضاعتنا، وقد ردت إلينا، ولعل خير دليل على ذلك هو قول ابن الأثير في "المثل السائر"، وهو يتحدث عن المقالة الأولى، وهي في الصناعة اللفظية: "اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء:

- الأول منها: اختيار الألفاظ المفردة، وحكم ذلك حكم اللآلئ المبدّدة؛ فإنها تُخْتَار وتُنْتَقَى قبل النظم.
- الثاني: نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها؛ لئلا يجيء الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منها بأختها المشاكلة لها.
- الثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه، وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم، فتارة يجعل إكليلاً على الرأس، وتارة يجعل قلادة في العنق، وتارة يجعل شنقاً في الأذن، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصّه" (ابن الأثير، 163/1).

فأنتَ ترى التشابه الكبير بين هذه الأمور الثلاثة الضرورية لصاحب صناعة الكلام عند ابن الأثير وبين مقولات الأسلوبية الثلاثة التي سبق ذكرها، وقد كان ابن الأثير في كتابه "المثل السائر" متأثراً كثيراً بابن جني (حسين، د.ت، ص 281؛ المسلاتي، 2017، ص 3).

هذا، وقد اخترتُ في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي؛ لأنه بالوصف يمكن دراسة لغة واحدة في زمان ما عند شخص ما على نحو علمي، فتقرر الحقائق وفق الملاحظة دون تفسيرها بما ليس من بابها (السعران، 1997، ص 39–44؛ الراجحي، 1979، ص 36)، ومن ثم عُرِّف المنهج الوصفي بأنه وسيلة لرصد الظواهر ووصفها (مجهول، [بحث في التربية]، د.ت، ص 96)، وإن شئتَ قلتَ: هو دراسة قضية ما وتسجيل الملاحظات في شأنها بأسلوب موضوعي صرف (حسان، 2006، ص 254)، ولأنه بالتحليل يمكن التعرف على الوحدات الصغرى المكونة للخطاب الكلي من بعد النظر في الكليات العامة (حسان، 2006، ص 16؛ ضيف، د.ت، ص 64).

وقد اقتضت خطة البحث أن يقع في تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة على النحو الآتي:

وأما التمهيد: فقد جُعِلَ مدخلاً إلى مصطلح الأسلوبية، وجاء في شقَّيْن:

الأول: في معنى الأسلوب لغةً واصطلاحاً والفرق بين الأسلوب والأسلوبية.

الآخر: في نشأة الأسلوبية في تراثنا العربي ومحاورها أو مقولاتها.

وأما المبحث الأول: فجُعِلَ للحديث عن (محور الاستبدال).

وأما المبحث الثاني: فخُصِّصَ للحديث عن (محور التركيب).

وأما المبحث الثالث: فخُصِّصَ للحديث عن (محور الانزياح).

ثم تأتي الخاتمة، وفيها أهم ما توصلتُ إليه من نتائج وتوصيات، وإني لأسأل الله تعالى أن يوفق ويسدِّد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

تمهيد:

أولا: مفهوم الأسلوب والأسلوبية:

الأسلوب لغةً: هو السطر من النخيل، وكل طريق ممتد، ويُجْمَعُ على أساليب (ابن منظور، 1، ص 471).وهو الطريقة التي يتعامل بها الإنسان مع الأشياء والناس، وللمبدع صبغته الخاصة التي يضفيها على أعماله الأدبية.

الأسلوب اصطلاحاً: عَرَّفَهُ عبد القاهر الجرجاني (ص 468–469) بأنه: "الضرب من النظم والطريقة فيه".

أما في الدراسات الحديثة، فقد تَعَدَّدَتْ تعريفاتُهُ بناءً على ثلاثة اعتبارات (انظر: النقد الأدبي الحديث: أسسه الجمالية ومناهجه المعاصرة رؤية إسلامية، ص 117؛ في الأسلوب والأسلوبية، ص 16):

باعتبار المرسل: هو التعبير الكاشف لنمط تفكير صاحبه، لذا قيل: "الأسلوب هو الرجل".

باعتبار المتلقي: هو سمات النص التي تترك أثراً في المخاطب.

باعتبار الخطاب: هو مجموعة الظواهر اللغوية المختارة الموظَّفَة التي تشكِّلُ "عدولاً" وما يتصل به من إيحاءات.

الأسلوبية: هي مصطلح حديث يُعْنى بدراسة وقائع التعبير في اللغة المشحونة بالعاطفة والحساسية، كما وصفها شارل بالي (في الأسلوب والأسلوبية، ص 42)

ثانياً: الفرق بين الأسلوب والأسلوبية:

تتلخص الفروق الجوهرية بينهما في أن الأسلوب يمثِّلُ وصفاً للكلام أو تعبيراً لسانياً، بينما الأسلوبية هي علم له أسس وقواعد يُعْنى بدراسة ذلك التعبير. كما أن الأسلوب يقف عند تحليل النص، بينما تتجاوز الأسلوبية ذلك إلى نقد الأساليب بناءً على مناهج نقدية معروفة (أبو العدوس، 1427هـ، ص 37).

ثالثاً: نشأة الأسلوبية عند العرب ومحاورها:

تؤكد المصادر أن الأسلوبية ظهرت عند العرب مع "الحكومات الأدبية" في العصر الجاهلي قبل الفكر الغربي بمئات السنين؛ ذلك لأن الظهور الأول للأسلوبية في الفكر اللغوي الغربي عند شارل بالي، فوضع علم الأسلوبية كجزء من المدرسة الألسنية، وأصبحت الأسلوبية هي الأداة الجامعة بين علم اللغة والأدب (انظر الأسلوب والأسلوبية، ص٤١، أبو العدوس، ١٤٢٧هـ،٣٨).

ومثال ذلك نقد النابغة الذبياني لقصيدة حسان بن ثابت في سوق عكاظ، حيث انطلق النابغة من منهج نقدي معلوم حين قال لحسان: "أنتَ شاعرٌ، ولكنَّكَ أقللتَ جِفَانَكَ وأَسْيَافَكَ، وفَخَرْتَ بِمَنْ وَلَدْتَ وَلَمْ تَفْخَرْ بِمَنْ وَلَدَكَ" (المرزباني، 1963، ص 69–70).

أما النص القرآني فقد حقَّقَ "الفرادة" التي هي غاية الأسلوبية. وقد لخَّصَ الرماني مراتب البلاغة في نص مهم جاء فيه: "فأمَّا البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن" (الرماني، ص 75–76).فنستخلص من هذه المصادر أن اللغة نوعان:

لغة إخبارية: تكتفي بنقل المعنى للتواصل.

لغة إبداعية: تتجاوز الإخبار لتضع المفردة في سياق فريد يحقق "التغريب" والفرادة، وهذا ما يُعْرَفُ بالأسلوب.

أما مقولات الأسلوبية (المحاور الأساسية):

فقد دَأَبَ النُّقَّادُ الأسلوبيُّونَ المُعَاصِرُونَ على رَصْدِ أَسَالِيبِ الكُتَّابِ وَتَفَرُّدِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ: الْوَاحِدُ عَنِ الْآخَرِ، مِنْ خِلَالِ الْمَقُولَاتِ الثَّلَاثِ: الِاخْتِيَارِ وَالتَّرْكِيبِ وَالِانْزِيَاحِ، وَهَذِهِ الْمَقُولَاتُ أَوِ الْمُحَدِّدَاتُ أَوِ الْمَبَادِئُ رَأَيْتُ تَنَاوُلَهَا فِي ثَلَاثَةِ مَبَاحِثَ عِنْدَ ابْنِ الْأَثِيرِ مَعَ الْمُوَازَنَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَسْلُوبِيِّينَ الْمُحْدَثِينَ

المبحث الأول: محور الاختيار

مما لا شك فيه أن الكاتب لا يلجأ إلى تجربته الإبداعية إلا بعد إلمامه بإمكانات اللغة الكامنة فيها، وممارستها بوعي وإدراك، فيُنتقي من المفردات ما يحقق الغرض الذي يطمح إلى إيصاله لبني جنسه؛ بغية التواصل معهم والتأثير فيهم. ومن هنا يبدأ عمل النقاد والأسلوبيين من حيث الكشف عن الأسباب التي تقف وراء اختيار الأديب لكلمة معينة دون سائر أخواتها التي تشترك معها في المعنى العام، وتختلف معها في التفاصيل أو بعض جزئيات المعنى.

وهذا المحور المسمى محور (الاختيار) أو (الاستبدال) يمثل خاصية من خصائص البحث الأسلوبي؛ ومن ثم فلا غرو إن سمى الزمخشري معجمه "أساس البلاغة"، فالكلام يتكون من مجموعة من الجمل، والجملة تتكون من كلمات، فلا جملة دون كلمات، ولا كلام دون جمل. ولا شك أن الزمخشري لم يختر هذا الاسم لمعجمه عبثاً واعتباطاً، وإنما اختاره عن وعي وإدراك ينمّ عن تفطُّنه لدور الاختيار في أداء النَّظْمِ المعنى المراد بدقة وإبداع؛ فلابد أن تكون كلماتُ منشئها معبِّرَةً عن معانيه في المقام الذي قيلت فيه؛ ولذلك قالوا قديماً: "لكل مقام مقال".

ويقول عقيق (2012، ص 221): "إذا كانت اللغة تحوي مفردات متعددة تتركَّب منها أعداد لا تحصى من العبارات والجمل، فإن القضية المثارة هي البحث عن الدلالات المتعلقة بأسباب اختيار جملة بدلاً من جملة أخرى، وتفضيل تركيب عن تركيب سواه".

وقد تنبَّه ابن الأثير – كما غيره من النقاد الذين سبقوه – إلى حقيقة أن المبدع أو الأديب لابدَّ له في أول الأمر من ذخيرة لغوية ينتقي منها المفردات لتأليف كلامه، ومن ثم قال: "اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء: الأول منها: اختيار الألفاظ المفردة، وحكم ذلك حكم اللآلئ المبدَّدة؛ فإنها تُخْتَارُ وتُنْتَقَى قبل النَّظْمِ" (ابن الأثير، 1، ص 149).

وإذا كان الأسلوب – قبل كل شيء كما يقول الأسلوبيون – راجعاً إلى الاختيار الواعي، وأن ثراء الإمكانات والاختيارات شرط في الأسلوب (ابن شارف، ص 14)، نجد ابن الأثير يقول: "ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتَيْنِ تدلَّانِ على معنىً واحدٍ، وكلاهُما حَسَنٌ في الاستعمالِ، وهما على وزنٍ واحدٍ وعَدَدٍ واحدٍ، إلاَّ أنَّهُ لا يَحْسُنُ استعمالُ هَذِهِ في كُلِّ مَوْضِعٍ تُسْتَعْمَلُ فيهِ هَذِهِ، بَلْ يُفَرَّقُ بَيْنَهُما في مَوَاضِعِ السَّبْكِ، وَهَذَا لا يُدْرِكُهُ إلاَّ مَنْ دَقَّ فَهْمُهُ وَجَلَّ نَظَرُهُ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ –تَعَالَى– : {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا} فَاسْتُعْمِلَ الْجَوْفَ فِي الْأُولَى وَالْبَطْنَ فِي الثَّانِيَةِ، وَلَمْ يَسْتَعْمِلِ الْجَوْفَ مَوْضِعَ الْبَطْنِ، وَلَا الْبَطْنَ مَوْضِعَ الْجَوْفِ، وَاللَّفْظَتَانِ سَوَاءٌ فِي الدَّلَالَةِ، وَهُمَا ثَلَاثِيَّتَانِ فِي عَدَدٍ وَاحِدٍ، وَوَزْنُهُمَا وَاحِدٌ أَيْضًا، فَانْظُرْ إِلَى سَبْكِ الْأَلْفَاظِ كَيْفَ تَفْعَلُ؟" (ابن الأثير، 1، ص 150–151).

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}، وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}، فالْقَلْبُ وَالْفُؤَادُ سَوَاءٌ فِي الدَّلَالَةِ، وَإِنْ كَانَا مُخْتَلِفَيْنِ فِي الْوَزْنِ؛ وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي الْقُرْآنِ أَحَدُهُمَا فِي مَوْضِعِ الْآخَرِ. وعلى هذا ورد قولُ الأَعْرَجِ مِنْ أَبْيَاتِ الْحَمَاسَةِ:

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ وَإِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ...لَا عَارَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَمَّ الْأَجَلُ

الْمَوْتُ أَحْلَى عِنْدَنَا مِنَ الْعَسَلِ

وقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي:

إِذَا شِئْتَ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِحٍ ... رِجَالٌ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا شَهْدُ

فَهَاتَانِ لَفْظَتَانِ هُمَا الْعَسَلُ وَالشَّهْدُ، وَكُلَّاهُمَا حَسَنٌ مُسْتَعْمَلٌ، لَا يُشَكُّ فِي حُسْنِهِ وَاسْتِعْمَالِهِ، وَقَدْ وَرَدَتْ لَفْظَةُ الْعَسَلِ فِي الْقُرْآنِ، دُونْ لَفْظَةِ الشَّهْدِ؛ لِأَنَّهَا أَحْسَنُ مِنْهَا، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ لَفْظَةَ الشَّهْدِ وَرَدَتْ فِي بَيْتِ أَبِي الطَّيِّبِ، فَجَاءَتْ أَحْسَنَ مِنْ لَفْظَةِ الْعَسَلِ فِي بَيْتِ الْأَعْرَجِ" (ابن الأثير، 1، ص 150-151).

وما يزيد الأمر تبياناً ووضوحاً أن الكلمة الواحدة يستعملها متكلّمان فتَرُوقُ لَكَ عِنْدَ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْغَرَضَ وَاحِدٌ، مِثَالُ ذَلِكَ كَلِمَةُ (تُؤْذِي)، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: "وَسَأَضْرِبُ لَكَ مِثَالًا يَشْهَدُ بِصِحَّةِ مَا ذَكَرْتُهُ، وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ جَاءَتْ لَفْظَةٌ وَاحِدَةٌ فِي آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَبَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ؛ فَجَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ جَزْلَةً مَتِينَةً، وَفِي الشِّعْرِ رَكِيكَةً ضَعِيفَةً... أَمَّا الْآيَةُ فَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ}، وَأَمَّا بَيْتُ الشِّعْرِ فَهُوَ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي:

تَلَذُّ لَهُ الْمُرُوءَةُ وَهِيَ تُؤْذِي ... وَمَنْ يَعْشَقْ يَلَذَّ لَهُ الْغَرَامُ

فَحَطَّتْ لَفْظَةَ (تُؤْذِي) مِنْ قَدْرِ الْبَيْتِ؛ لِضَعْفِ تَرْكِيبِهَا، وَحُسْنِ مَوْقِعِهَا فِي تَرْكِيبِ الْآيَةِ" (ابْنُ الْأَثِيرِ، 1، ص 152-153).

ولئن اقتصر حديثُ الأسلوبيّينَ المعاصرينَ في اختيارِ الألفاظِ على دورِها في الدَّلالَةِ، كما مَرَّ معنا قريباً، مِنْ دُونِ النَّظْرِ في بِنْيَتِهَا وَحُرُوفِهَا، وَمَخَارِجِ أَصْوَاتِهَا، وَمَا لِذَلِكَ مِنْ جَمَالِيَّاتٍ في بِنَاءِ النَّظْمِ، فَإِنَّ نَقَّادَنَا الْعَرَبَ الْأَوَّلِينَ قَدْ أَوْلَوْا لِمَا يُعْرَفُ بِالْمُوسِيقَى الْخَارِجِيَّةِ اهْتِمَامًا لَا يَقِلُّ عَنْ اهْتِمَامِهِمْ بِدَلَالَةِ الْكَلِمَةِ نَفْسِهَا، فرأوا من جماليات النص أن يتضافر جمال جرس الصوت في النظم مع دقة ما يحمله من مدلول، بل إنهم رأوا أن الكلمة لا توصف بأنها بليغة إلا إذا كانت سالمة من تنافر الحروف، فيكون وقعها على الأذن جميلا وعذبا رائعا.

وقد قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: "وَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ الْجُهَّالِ إِذَا قِيلَ لِأَحَدِهِمْ إِنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ حَسَنَةٌ وَهَذِهِ قَبِيحَةٌ أَنْكَرَ ذَلِكَ... وَمَنْ لَهُ أَدْنَى بَصِيرَةٍ يَعْلَمُ أَنَّ لِلْأَلْفَاظِ فِي الْأُذُنِ نَغْمَةً لَذِيذَةً كَنَغْمَةِ أَوْتَارٍ، وَصَوْتًا مُنْكَرًا كَصَوْتِ حِمَارٍ، وَأَنَّ لَهَا فِي الْفَمِ أَيْضًا حَلَاوَةً كَحَلَاوَةِ الْعَسَلِ، وَمَرَارَةً كَمَرَارَةِ الْحَنْظَلِ" (ابْنُ الْأَثِيرِ، 1، ص 155-156).

وما يُثْبِتُ أَنَّ ابْنَ الْأَثِيرِ لَمْ يَكْتَفِ فِي بَيَانِ مَحْوَرِ الِاخْتِيَارِ بِمُجَرَّدِ إِشَارَاتٍ سَرِيعَةٍ مُتَنَاثِرَةٍ، بَلْ جَاءَ كَلَامُهُ وَاضِحًا وَمُفِيدًا نَسْتَشْفِي مِنْهُ أَنَّهُ يَشْتَرِطُ فِي جَمَالِيَّةِ الِاخْتِيَارِ مَا يَلِي:

1- وجوبُ النَّظَرِ إِلَى الْكَلِمَةِ قَبْلَ تَرْكِيبِهَا مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا أَتُؤَدِّي فِي الْجُمْلَةِ الْمَعْنَى الْمُرَادَ أَمْ لَا؟ مثل استعمال أداة نفي في جملة فعلية، واختيار الأنسب من (لمْ، لَنْ، لا، ما، إنْ)، والنظر في الفعل من حيث الزمن وكماله.

2- الِاخْتِيَارُ مِنَ الْكَلِمَاتِ مَا خَفَّ نُطْقُهُ وَعَذُبَ سَمْعُهُ، مَعَ دِقَّتِهِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْغَرَضِ. وقد أفاد ابن الأثير من علماء سبقوه كعبد القاهر الجرجاني وابن جنّيّ (حسين، ت.د.، ص 281).

المبحث الثاني: محور التركيب أو التوزيع أو التأليف:

يأتي محور التركيب أو التوزيع في الوجود بعد محور الاختيار أو الاستبدال، فبعد أن يكتمل المنشئ أو المبدع أو المتكلم اختيار ألفاظه ومفردات خطابه بوعي وإدراك، يمارس عمله الأدبي الدال على ما في مكنونه من توزيع الكلمات في نظام الجملة وفق قرينة الرتبة، فيقدم المقدم، ويؤخر المؤخر، ولكن الموقف الأدبي قد يتطلب منه تقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، لغرض في نفسه. "وممارسة الاختيارات الأسلوبية المناسبة جزء هام من استخدامنا الصحيح والفعال للغة، ومن هنا كان في التعدد الأسلوبي لكل متكلم أصلي للغة ما حكمة عملية" (ليونز، ت.د.، ص:٣٨).

وهذا المبدأ في الأسلوبية يمثل خاصية من خصائص البحث الأسلوبي، والقضية المثارة من حيث محور التركيب هي "البحث عن الدلالات المتعلقة بأسباب اختيار جملة بدلاً من جملة أخرى، وتفضيل تركيب على سواه" (عتيق، 2012، ص:٢٢١).

ويرى جاكوبسون أن الأسلوب ما هو إلا إسقاط محور الاختيار (الاستبدال) على محور التركيب (التوزيع)؛ "لأن ما يعنيه جاكوبسون هنا هو: أن اللغة الشعرية لها القدرة على إيجاد وخلق سلسلة من العلاقات التركيبية تماثل العلاقات التي تقوم بين الأجزاء المنفصلة في مجموعة لغوية استبدالية، مما يؤكد كون الأسلوبية تمثل بعداً لغوياً لدراسة النص الأدبي" (عبد المطلب، ١٩٨٤م، ص:١٨٨).

وإذ كانت الأسلوبية من حيث مبدأ أو محور التركيب هي على هذا النحو الذي رآه جاكوبسون، فإن ابن الأثير وغيره من اللغويين العرب كان لهم فضل السبق في الحديث عن الأسلوبية من حيث ذلك، وإن لم يأتوا على ذكر المصطلح.

فهذا ابن الأثير يقول: "واعلم أن تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها؛ لأن التركيب أعسر وأشق" (ابن الأثير، ص:١٦٦).

ويزيد الأمر وضوحاً بقوله: "ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم –من حيث انفرادها– قد استعملها العرب ومن بعدهم، ومع ذلك يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب، وهل تشك أيها المتأمل لكتابنا هذا إذا فكّرت في قوله تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [هود: 44] أنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وكذلك إلى آخرها، فإن ارتَبْتَ في ذلك فتأمَّلْ، هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها، وأُفْرِدَتْ من بين أخواتها، كانت لابِسَةً من الحسن ما لبِسَتْهُ في

موضعها من الآية؟ ومما يشهد لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تَرُوقُكَ في كلام، ثم تراها في كلام آخر فتكرهها، فهذا ينكره من يذوق الفصاحة، ولا عرف أسرار الألفاظ في تركيبها وانفرادها" (ابن الأثير، ص:١٦٦).

وضرب ابن الأثير على ذلك بأمثلة يؤكد فيها أهمية التركيب أو السياق، وأنه مجال خصب للتفكير الأسلوبي وفي تحديد الأدوات الإجرائية لمفهوم ما يُسَمَّى اليوم الأسلوبية، فأعطى مؤشَّراً حقيقياً لتلمس الجوانب الجمالية التي تختزنها النصوص الأدبية، فالكلمة والتعبير لا يتحدَّد معناهما إلاَّ وفقاً للسياقات الأدبية. فقال: "وكذلك ورد في القرآن الكريم: {إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ} [ص: 23]، فلفظة (لِيَ)... قد جاءت في الآية مندرجة متعلِّقَةً بما بعدها، وإذا جاءت منقطعة لا تجيء لائقة، كقول أبي الطَّيِّب المتنبي:

تمسي الأمانيُّ صرعى دون مبلغه... فما يقول لشيءٍ لَيْتَ ذاكَ لِي

وربَّما وقع بعض الجهَّال في هذا الموضع، فأدخل فيه ما ليس منه، كقول أبي الطَّيِّب:

ما أَجْدَرُ الأَيَّامِ واللَّيَالِي... بِأَنْ تَقُولَ مَا لَهُ وَمَالِي

فإنَّ لفظة (لِيَ) هُنَا قد وَرَدَتْ بَعْدَ (مَا)، وقَبْلَهَا (مَا لَهُ)، ثُمَّ قَالَ: (وَمَا لِيَ)، فَجَاءَ الْكَلَامُ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ، وَلَوْ جَاءَتْ لَفْظَةُ (لِيَ) هُنَا كَمَا جَاءَتْ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ لَكَانَتْ مُنْقَطِعَةً عَنِ النَّظِيرِ وَالشَّبِيهِ، فَكَانَ يَعْلُوهَا الضَّعْفُ وَالرِّكَّةُ، وَبَيْنَ وَرُودِهَا هُنَا وَوَرُودِهَا فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ فَرْقٌ يَحْكُمُ فِيهِ الذَّوْقُ السَّلِيمُ.

وهُنَا مِنْ هَذَا النَّوْعِ لَفْظَةٌ أُخْرَى قَدْ وَرَدَتْ فِي آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَفِي بَيْتٍ مِنْ شِعْرِ الْفَرْزَدَقِ، فَجَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ حَسَنَةً، وَفِي بَيْتِ الشِّعْرِ غَيْرَ حَسَنَةٍ، وَتِلْكَ اللَّفْظَةُ هِيَ لَفْظَةُ (الْقَمْلِ). أَمَّا الْآيَةُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ} [الْأَعْرَافِ: ١٣٣]، أَمَّا فِي بَيْتِ الشِّعْرِ فَقَوْلُ الْفَرْزَدَقِ:

مَنْ عَزَّهُ احْتَجَرَتْ كَلِيبٌ عِنْدَهُ... زَرْبًا كَأَنَّهُمُ لَدَيْهِ الْقَمْل

وإِنَّمَا حَسُنَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ فِي الْآيَةِ دُونَ الْبَيْتِ مِنَ الشِّعْرِ؛ لِأَنَّهَا جَاءَتْ فِي الْآيَةِ مُنْدَرِجَةً فِي ضِمْنِ الْكَلَامِ، وَلَمْ يَنْقَطِعِ الْكَلَامُ عِنْدَهَا، وَجَاءَتْ فِي الشِّعْرِ قَافِيَةً، أَيْ: آخِرًا انْقَطَعَ الْكَلَامُ عِنْدَهَا. وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى حِكْمَةِ أَسْرَارِ الْفَصَاحَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ غُصْنًا مِنْهُ فِي بَحْرٍ عَمِيقٍ لَا قَرَارَ لَهُ.

فَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْمُشَارُ إِلَيْهَا، فَإِنَّهَا قَدْ تَضَمَّنَتْ خَمْسَةَ أَلْفَاظٍ، وَهِيَ: الطُّوفَانُ، وَالْجَرَادُ، وَالْقَمْلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالدَّمُ، وَأَحْسَنُ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْخَمْسَةِ هِيَ الطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالدَّمُ، فَلَمَّا وَرَدَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ الْخَمْسَةُ بِجُمْلَتِهَا قُدِّمَ مِنْهَا لَفْظَتَانِ 'الطُّوفَانِ' وَ'الْجَرَادِ'، وَأُخِّرَتْ لَفْظَةُ 'الدَّمِ' آخِرًا، وَجُعِلَتْ لَفْظَةُ 'الْقَمْلِ وَالضَّفَادِعِ' فِي الْوَسْطِ، لِيَطْرُقَ السَّمْعُ أَوَّلًا الْحُسْنَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْخَمْسَةِ، وَيَنْتَهِيَ إِلَيْهِ آخِرًا، ثُمَّ إِنَّ لَفْظَةَ 'الدَّمِ' أَحْسَنُ مِنْ لَفْظَتَيْ 'الطُّوفَانِ' وَ'الْجَرَادِ'، وَأَخَفُّ فِي الِاسْتِعْمَالِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جِيءَ بِهَا آخِرًا، وَمُرَاعَاةُ مِثْلِ هَذِهِ الْأَسْرَارِ وَالدَّقَائِقِ فِي اسْتِعْمَالِ الْأَلْفَاظِ لَيْسَ مِنَ الْقُدْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ" (ابن الأثير، ص:١٦٨-١٦٩).

فأنتَ –كما ترى– أنَّ الكلام قد أتى على ما ذكره جاكوبسون، وزاد عليه، حتَّى إنَّهُ لَيَكَادُ الْمَرْءُ يَتَوَهَّمُ أَنَّ كَلَامَ ابْنِ الْأَثِيرِ كَالشَّرْحِ لِكَلَامِ جَاكُوبْسُونَ مِنْ حَيْثُ رَفْعِ الْغَمْضِ، وَفَكِّ الْأَلْغَازِ، وَبَيَانِ الْمُجْمَلِ، وَتَقْيِيدِ الْمُطْلَقِ، وَحَلِّ الْأَلْفَاظِ، مَعَ التَّطْبِيقِ بِالْأَمْثِلَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالشِّعْرِيَّةِ؛ لِيَتَّضِحَ الْمَقَالُ، وَيُفْكَّ الْعِقَالُ.

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ، فَإِنَّ ابْنَ الْأَثِيرِ يَرَى ثَمَّةَ فُرُوقًا مِنْهَجِيَّةً فِي أَسْلُوبِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَسْلُوبِ الشُّعَرَاءِ، وَهُوَ – كَمَا فِي الْمَدْرَسَةِ الْأُسْلُوبِيَّةِ– يَرْكُزُ عَلَى أَهَمِّيَّةِ السِّيَاقِ بِوَصْفِهِ الْفَضَاءَ الَّذِي تَتَبَلْوَرُ فِيهِ الْمَعَانِي. "وَالْحَقُّ أَنَّ الْمَعْنَى يُفْهَمُ مِنَ الْوَحْدَاتِ الصَّرِيحَةِ الَّتِي تُؤَلِّفُهُ، أَيْ: إِنَّ السِّيَاقَ قَدْ يُعْطِي الْمَدْلُولَاتِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ أَنْ تُعْزَى بِشَكْلٍ بَسِيطٍ إِلَى وَحْدَةٍ مُعَيَّنَةٍ، أَوْ وَحْدَاتٍ مُضْمُومَةٍ بِطَرِيقَةٍ آلِيَّةٍ" (عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، ١٩٨٤م، ص:٣٢١).

وَابْنُ الْأَثِيرِ يُلْمِحُ فِي الْأَمْثِلَةِ الَّتِي سَاقَهَا سَابِقًا إِلَى أَنَّ السِّيَاقَ يَتَحَدَّدُ ضِمْنَ بَعْدَيْنِ، وَهُمَا: بَعْدٌ دَاخِلِيٌّ، وَبَعْدٌ خَارِجِيٌّ. فَالْبَعْدُ الدَّاخِلِيُّ يَتَعَلَّقُ بِاللُّغَةِ وَتَرَاكِيبِهَا مِنْ حَيْثُ مَوْقِعُ الْكَلِمَةِ بَيْنَ أَخَوَاتِهَا، وَالْهَيْئَةُ الَّتِي ائْتَلَفَتْ فِيهَا الْكَلِمَاتُ مَعَ بَعْضِهَا، وَمَكَانُ هَذِهِ الِائْتِلَافَاتِ وَالتَّرَاكِيبِ مِنَ الْمَوْضُوعِ الْجَامِعِ لَهَا، أَوْ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى هُوَ طَرِيقَةُ تَسْيِيقِ الْكَلِمَةِ الْمُفْرَدَةِ دَاخِلَ الْجُمْلَةِ، وَتَسْيِيقِ الْجُمْلَةِ مَعَ الْجُمْلَةِ الْأُخْرَى، وَتَسْيِيقِ هَذِهِ الْجُمَلِ دَاخِلَ الْإِطَارِ الْكُلِّيِّ لِلنَّصِّ" (الْغَوِيلُ، ٢٠١١، ص:١٤).

وَمِنَ الْأَهَمِّيَّةِ بِمَكَانٍ أَنْ يُذْكَرَ مِنْ خِلَالِ تَحْلِيلِ ابْنِ الْأَثِيرِ لِلنُّصُوصِ الَّتِي سَاقَهَا فِي إِثْبَاتِ فِكْرَتِهِ الَّتِي دَنْدَنَ حَوْلَهَا كَثِيرًا مَا كَانَ يَرْمِي إِلَيْهِ، وَهُوَ: أَنَّ أَهَمَّ الْأَدَوَاتِ الرَّابِطَةِ الَّتِي تُسَاهِمُ بِشَكْلٍ فَاعِلٍ وَمُهِمٍّ فِي تَمَاسُكِ النَّصِّ، وَإِضْفَاءِ لَمْسَةٍ مِنَ الْجَمَالِ عَلَيْهِ: الضَّمَائِرُ، وَحُرُوفُ الْعَطْفِ، وَغَيْرُهَا. "وَلَمَّا كَانَتْ وَحْدَاتُ النَّصِّ عَلَى هَذِهِ الصَّفَةِ مِنَ التَّمَاسُكِ وَالتَّرَابُطِ، فَلَا بُدَّ فِي تَحْلِيلِ أَيٍّ مِنْهَا مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى السِّيَاقِ؛ لِإِحَاطَةِ دَلَالَاتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ، وَالسِّيَاقُ هُنَا بِنَوْعَيْهِ اللُّغَوِيِّ وَغَيْرِ اللُّغَوِيِّ" (بُودُوخَةُ، 2012: ٦٢). وَمِنْ ثَمَّ كَانَ ابْنُ الْأَثِيرِ –كَمَا رَأَيْنَا– يُولِي أَدَوَاتِ الرَّبْطِ اهْتِمَامًا بَالِغًا، وَيُفَاضِلُ بَيْنَ النُّصُوصِ مِنْ خِلَالِهَا.

المبحث الثالث: محور الانزياح

يعد مصطلح "الانزياح" من المصطلحات اللغوية الحديثة التي تداولتها المدرسة الأسلوبية الغربية، وقد ورد معناه في الدراسات اللغوية العربية القديمة، لا سيما عند ابن الأثير. وهذا يعني أن الأصول الأولى لهذه المدرسة كانت معروفة عند الأسلاف، كما سبق الإشارة إلى ذلك في المبحثين السابقين، حيث بدأت ملامحها تتضح شيئاً فشيئاً حتى استقرت على صورة اليوم. فقد ورد معنى هذا المصطلح عند ابن الأثير تحت اسم "العدول"، والأمثلة عليه كثيرة. ولكن قبل الخوض في بيان معرفة ابن الأثير بمضمون هذا المصطلح، يجب أولاً تبيين معنى الانزياح.

معنى الانزياح:

الانزياح في اللغة مصدر الفعل "انْزَاحَ"، ومعناه: ابتعد. وقد ورد في شعر حميد بن ثور –من الشعراء المخضرمين– قال:

مطوقةٌ خطِبَاءُ تَصْدَعُ كُلَّمَا ... دَنَا الصَّيْفُ وَانْزَاحَ الرَّبِيعُ وَأَنْجَمَا

(أبو تمام، 1398هـ: 93) (الزبيدي، 2001، 6: 532) (المرسي، 2000م، 142/3).

وقال ابن منظور في مادة (ز ي ح): "زَاحَ الشَّيْءُ يَزِيحُ زَيْحًا وَزَيُوحًا وَزَيْحَانَ، وَانْزَاحَ: ذَهَبَ وَتَبَاعَدَ" (ابن منظور، 1414هـ، 470/2).

ولا شك أن "انْزَاحَ" فعل خماسي مبدوء بهمزة وصل على وزن "انْفَعَلَ"، فمصدره على وزن "انْفِعَالٍ"؛ تكون كلمة "انزياح" عربية فصيحة، على عكس ما ذهب إليه الدكتور أحمد مختار عمر من أنها لفظة مولّدة". (انظر: أحمد مختار عمر، 2008م، 1008/2).

الانزياح اصطلاحاً:

هو الخروج عن الاستعمال المألوف (أطياف الوجه الواحد: 28). وقد تلقى الباحثون المغاربة هذا المصطلح بالقبول؛ لأنه ترجمة حرفية للمصطلح الفرنسي "L'écart"، ولأنه ليس كغيره من المصطلحات المرادفة التي لها مدلول يبرر رفضها، مثل مصطلح جاكوبسون "خيبة الانتظار" (الأسلوب والأسلوبية: 158-163)، أو "الانحراف"، "التحريف"، "العدول"، ونحوها، التي لم تلقَ رضىً في العصر الحديث عند بعض الدارسين. وإن كان ابن الأثير قد اختار منها مصطلح "العدول"، فقد قال: "وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمُتَوَشِّحُ لِمَعْرِفَةِ عِلْمِ الْبَيَانِ، أَنَّ الْعَدْوَلَ عَنْ صِيْغَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ إِلَى صِيْغَةٍ أُخْرَى لَا يَكُونُ إِلَّا لِنَوْعِ خُصُوصِيَّةٍ اقْتَضَتْ ذَلِكَ، وَهُوَ لَا يَتَوَخَّاهُ فِي كَلَامِهِ إِلَّا الْعَارِفُ بِرَمُوزِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ الَّذِي اطَّلَعَ عَلَى أَسْرَارِهَا، وَفَتَّشَ عَنْ دَقَائِقِهَا، وَلَا تَجِدُ ذَلِكَ فِي كُلِّ كَلَامٍ، فَإِنَّهُ مِنْ أَشَكِّ أَضْرُبِ عِلْمِ الْبَيَانِ، وَأَدَقِّهَا فَهْمًا، وَأَغْمَضِهَا طَرِيقًا" (ابن الأثير، 145/2).

ولهذا المبدأ أهمية خاصة في علم الأسلوب، حتى إن بعض الحداثيين سماه "عِلْمَ الْانْحِرَافَاتِ" (عيَّاد، 1402هـ: 37). وينطلق هذا المبدأ من تصنيف اللغة إلى نوعين (الأسلوب والأسلوبية: 23):

- لغة مثالية معيارية: أي تتوافق مع القواعد التي وضعها اللغويون من استقراء اللغة.
- لغة إبداعية مخالفة: للنمط المعياري السابق؛ لسبب يبرر هذه المخالفة.

فالعدول -أو الانزياح: هو: مخالفة النمط المعياري المتعارف عليه إلى أسلوب جديد غير مألوف، عن طريق استعمال إمكانات اللغة المتاحة للكاتب، مع مراعاة ألا يخرج هذا العدول عن الحد المقبول، أي: أن يكون ضمن ما تسمح به قواعد اللغة المعيارية. كما يجب أن يكون الانزياح ذا فائدة؛ فليس العدول غاية في ذاته، إنما المقصود منه إثارة السامع وحفزه على التقبل (الأسلوب والأسلوبية: 24).

وإذا علِمْتَ أن الإنزياح بهذا المفهوم في المدرسة الأسلوبية الغربية، فيمكن القول باطمئنان: إن هذه المدرسة لَمْ تَأْتِ بِجَدِيدٍ عَمَّا هُوَ فِي تُرَاثِنَا الْعَرَبِيِّ، لا سيما عما هو عند ابن الأثير. فانظر إليه وهو يذكر محاور الأسلوبية قائلاً: "اعْلَمْ أَنَّهُ يَحْتَاجُ صَاحِبُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي تَأْلِيفِهِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءِ:

- الْأَوَّلُ مِنْهَا: اخْتِيَارُ الْأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ، وَحُكْمُ ذَلِكَ حُكْمُ اللَّآلِئِ الْمُبَدَّدَةِ، فَإِنَّهَا تُتَخَيَّرُ وَتُنْتَقَى قَبْلَ النَّظْمِ.
- الثَّانِي: نَظْمُ كُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ أُخْتِهَا الْمُشَاكِلَةِ لَهَا؛ لِئَلَّا يَجِيءَ الْكَلَامُ قَلِقًا نَافِرًا عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَحُكْمُ ذَلِكَ حُكْمُ الْعِقْدِ الْمُنَظُّومِ فِي اقْتِرَانِ كُلِّ لُؤْلُؤَةٍ مِنْهَا بِأُخْتِهَا الْمُشَاكِلَةِ لَهَا.
- الثَّالِثُ: الْغَرَضُ الْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ، وَحُكْمُ ذَلِكَ حُكْمُ الْمَوْضِعِ الَّذِي يُوْضَعُ فِيهِ الْعِقْدُ الْمُنَظُّومُ، فَتَارَةً يُجْعَلُ إِكْلِيلًا عَلَى الرَّأْسِ، وَتَارَةً يُجْعَلُ قِلَادَةً فِي الْعُنُقِ، وَتَارَةً يُجْعَلُ شَنْفًا فِي الْأُذُنِ، وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ هَيْئَةٌ مِنَ الْحُسْنِ تَخْصُصُهُ.

فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءٍ، لَا بُدَّ لِلْخَطِيبِ وَالشَّاعِرِ مِنَ الْعِنَايَةِ بِهَا، وَهِيَ الْأَصْلُ الْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي تَأْلِيفِ الْكَلَامِ مِنَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ" (ابن الأثير، 163/1).

فالذي جعله أولاً: محور الاختيار (الاستبدال)، والثاني: محور التركيب (التوزيع)، والثالث: محور الانزياح الذي سمَّاهُ "الْعَدْوَلَ". وقد جعله أعلى من المحورين الأولَيْن، ووسَمَهُ بقَوْلِهِ: "أَنْ يُؤْخَذَ الْمَعْنَى فَيُصَاغَ بِأَلْفَاظٍ غَيْرِ أَلْفَاظِهِ، ثُمَّ حِذْقُ الصَّايِغِ فِي صِيَاغَتِهِ، وَيَعْلَمَ مِقْدَارَ تَصَرُّفِهِ فِي صَنَاعَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ الزِّيَادَةَ عَلَى الْمَعْنَى فَتِلْكَ الدَّرَجَةُ الْعُلْيَا، وَإِلَّا أَحْسَنَ التَّصَرُّفَ وَأَتْقَنَ التَّأْلِيفَ لِيَكُونَ أَوْلَى بِذَلِكَ الْمَعْنَى مِنْ صَاحِبِهِ الْأَوَّلِ" (ابن الأثير، 105/1).

وقد أتى على ذلك بنماذج تدل على أن "الْعَدْوَلَ" عنده ما هو إلا "الانزياح" عند الأسلوبيين. فبعد أن ذكر أنَّ: "الْعَدْوَلَ عَنْ صِيْغَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ إِلَى صِيْغَةٍ أُخْرَى لَا يَكُونُ إِلَّا لِنَوْعِ خُصُوصِيَّةٍ اقْتَضَتْ ذَلِكَ، وَهُوَ لَا يَتَوَخَّاهُ فِي كَلَامِهِ إِلَّا الْعَارِفُ بِرُمُوزِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ..." (ابن الأثير، 145/2)، ساقَ القِسْمَ الثَّالِثَ الَّذِي هُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الْفِعْلِ الْمَاضِي بِالْمُسْتَقْبَلِ، وَعَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِالْمَاضِي، وَقَالَ: "اعْلَمْ أَنَّ الْفِعْلَ الْمُسْتَقْبَلَ إِذَا أَتَى بِهِ فِي حَالِ الْإِخْبَارِ عَنْ وُجُودِ الْفِعْلِ كَانَ ذَلِكَ أَبْلَغَ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي، وَذَاكَ لِأَنَّ الْفِعْلَ الْمُسْتَقْبَلَ يُوَضِّحُ الْحَالَ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا، وَيُسْتَحْضِرُ تِلْكَ الصُّورَةَ حَتَّى كَأَنَّ السَّامِعَ يَشْهَدُهَا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْفِعْلُ الْمَاضِي..." (ابن الأثير، 145/2).

ومثال ذلك قول الله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (النحل: 1). فإنَّ "أتى" هنا بمعنى "يَأْتِي"، فحَصَلَ انزياح –أَيْ عَدْوَلٌ– عَنِ اسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ الْمَاضِي. وَإِنَّمَا حَسُنَ فِيهِ لَفْظُ الْمَاضِي لِتَأْكِيدِ –سُبْحَانَهُ– إِتْيَانِ الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَدُخُولِهِ فِي جُمْلَةِ مَا لَا بُدَّ مِنْ حُدُوثِهِ وَوُقُوعِهِ، فَصَارَ فِي الْمَعْنَى الْفِعْلُ "يَأْتِي" بِمَنْزِلَةِ "قَدْ أَتَى ومضى".

وَالْأَمْثِلَةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَلَيْسَ الْغَرَضُ فِي هَذِهِ الْوَرَقَاتِ إِلَّا أَنْ نُرِيَ أَنَّ مَا هُوَ مَعْدُودٌ مِنَ الْمَدْرَسَةِ الْأُسْلُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ وَأَنَّهُ مِنْ بَنَاتِ أَفْكَارِهِمْ وَأَنَّهُمْ ظَفِرُوا بِمَا لَمْ يَظْفَرْ بِهِ أوائلنا، هُوَ ضَرْبٌ مِنَ التَّنَكُّرِ لِتُرَاثِنَا، وَهُوَ إِنْ دَلَّ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الِاطِّلَاعِ عَلَى مَا حَوَاهُ هَذَا التُّرَاثُ مِنْ مَخَابِأِ الْكُنُوزِ وَدَفَائِنِ النَّفَائِسِ.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث، يمكن تلخيص النتائج الرئيسية والتوصيات في النقاط الآتية:

أولاً/ تكشف الدراسة أن مفهوم الأسلوبية اللسانية الغربية لم يكن غريبًا عن تراثنا النقدي، بل كانت أصوله حاضرة في كتابات علمائنا، كما تثبت النماذج المستمدة من نصوصهم. وتمثل هذه النقطة إسهاماً رئيسياً للدراسة، من خلال قراءة لسانية حديثة تدمج بين التراث والمعاصرة، مما يسهم في تصحيح صورة التقدم الغربي المطلق ويبرز السبق النظري العربي.

ثانياً/ تبيّن أن المبادئ الأسلوبية الثلاثة الرئيسية في المدرسة الغربية تتوافق إلى حدّ كبير مع ما طرحه ابن الأثير، الذي سبقها بقرون طويلة، وإن كان قد بنى أفكاره على أسس وضعها أسلافه كابن جني وعبد القاهر الجرجاني. وتمنح هذه المقارنة ابن الأثير فضيلة السبق والتنظير، مع الإشارة إلى حاجة الدراسات المستقبلية إلى تحقيق أعمق لمدى التأثر والتأثير لتجنب المبالغة في نسبة الابتكار.

ثالثاً/ تؤكد الدراسة أن العملية الأسلوبية هي عملية انتقاء وبناء محكومة بقواعد منهجية، تبدأ من اختيار المفردة وتنتهي بالتركيب والتعبير غير المباشر. وبهذا يبرز إسهام الدراسة في كشف الوعي الفني لدى النقاد القدامى بطبيعة الإبداع اللغوي المنظم، مقابل فكرة العفوية والتلقائية.

رابعاً/ تُظهر الدراسة أن مفهوم العدول عند ابن الأثير، المقابل للانزياح الأسلوبي، يرتبط باستعمال اللغة في مستواها الإبداعي الذي يتجاوز الوظيفة الإبلاغية المباشرة إلى السعي نحو الانزياح المُبدع والفرادة.

تقييم الجدّة: تكمن أهميّة الدراسة في دمج المنهج اللساني الحديث مع كتب التراث، مما يكشف عن تطابق في الرؤى يعيد رسم الإسهام العربي في تاريخ النظرية الأسلوبية، ويُبرز ابن الأثير كناقد متقدّم. ويمكن تعزيز هذه النتائج في المستقبل بالاعتماد على المناهج الكمية والإحصائية إلى جانب التحليل النوعي.

اقتراحات لبحوث مستقبلية:

1- دراسة مقارنة كمية بين نصوص ابن الأثير ومدارس غربية محددة (كمدرسة جاكوبسون) باستخدام أدوات الحوسبة اللسانية.
2- استكشاف تأثير علماء البلاغة والنقد العرب الآخرين (مثل الزمخشري وابن رشيق) في تشكيل المبادئ الأسلوبية.
3- تحليل تطبيقي لمبادئ ابن الأثير في نماذج من الأدب العربي المعاصر لقياس استمراريتها وفاعليتها.

من خلال هذه الرؤية، أوصي المهتمين بالنقد الحديث بتكثيف القراءات المنهجية للتراث النقدي والبلاغي العربي، وكشف أسسه التي تسبق كثيراً من المفاهيم الغربية المعاصرة، مما يعيد الاعتبار لعطاء هذا التراث ويُثري الحقل الأسلوبي المعاصر. وَاللهُ الموفق، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الأثير، ضياء الدين. (د.ت.). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. (تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة). القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
- ابن سيده المرسي، أبو الحسن علي بن إسماعيل. (2000). المحكم والمحيط الأعظم. (تحقيق: عبد الحميد هنداوي). بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين. (1414هـ). لسان العرب. (ط 3). بيروت: دار صادر.
- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي. (1398هـ). الوحشيات. (تحقيق: عبد العزيز الميمني الراجكوتي ومحمود محمد شاكر، ط 3). القاهرة: دار المعارف.
- أبو العدوس، يوسف. (1427هـ). الأسلوبية الرؤية والتطبيق (ط 1). عمان: دار المسيرة.
- أطياف الوجه الواحد. (د.ت.). [بيانات النشر مفقودة].
- الأسلوبية والأسلوب. (د.ت.). [بيانات النشر مفقودة].
- بن شارف، حميدي. (د.ت.). أساليب الإيجاز في بناء الخطاب القرآني [رسالة ماجستير غير منشورة]. جامعة وهران، الجزائر.

- بو دوخة، مسعود. (2012). السياق والدلالة (ط 1). الجزائر: بيت الحكمة للنشر والتوزيع.
- الجرجاني، عبد القاهر. (1404هـ). دلائل الإعجاز. (تحقيق: محمود شاكر، ط 1). القاهرة: مكتبة الخانجي.
- حسان، تمام. (2006). اللغة العربية معناها ومبناها (ط 5). القاهرة: عالم الكتب.
- حسين، عبد القادر. (د.ت.). أثر النحاة في البحث البلاغي. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- الراجحي، عبده. (1979). النحو العربي والدرس الحديث: بحث في المنهج. بيروت: دار النهضة العربية.
- الرماني، أبو الحسن. (1976). النكت في إعجاز القرآن. في محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام (محققان)، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (ط 3). القاهرة: دار المعارف.
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني. (2001). تاج العروس من جواهر القاموس. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- السعران، محمود. (1997). علم اللغة مقدمة للقارئ العربي (ط 2). القاهرة: دار الفكر العربي.
- ضيف، شوقي. (د.ت.). المدارس النحوية. القاهرة: دار المعارف.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. (د.ت.). جامع البيان عن تأويل آي القرآن (ط 1). القاهرة: دار التربية والتراث.
- عقيق، عمر عبد الهادي. (2012). علم البلاغة بين الأصالة والمعاصرة (ط 1). عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع.
- عمر، أحمد مختار عبد الحميد. (2008). معجم اللغة العربية المعاصرة (ط 1). القاهرة: عالم الكتب العربية.
- عياش، منذر. (د.ت.). مقالات في الأسلوبية. دمشق: اتحاد كتاب العرب.
- عياد، شكري. (1402هـ). مدخل إلى علم الأسلوب. الرياض: دار العلوم.
- الغويل، المهدي إبراهيم. (2011). السياق وأثره في المعنى (ط 1). بنغازي: أكاديمية الفكر الجماهيري.
- فضل، صلاح. (1985). علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته (ط 2). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- في الأسلوب والأسلوبية. (د.ت.). [بيانات النشر مفقودة].
- ليونز، جون. (د.ت). اللغة وعلم اللغة (ط 1). بيروت: دار النهضة العربية.
- المسلاتي، نوري حسن حامد. (2017). انزياح التابع عن مطابقة متبوعة: دراسة وصفية تحليلية عند ابن جني. المجلة الليبية العالمية، (63).
- عبد المطلب، محمد. (1984). البلاغة والأسلوبية (ط 1). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- المرزباني، أبو عبد الله. (1963). الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء. (تحقيق: علي محمد البجاوي). القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
- النحوي، عدنان. (د.ت.). الأسلوب والأسلوبية. [بيانات النشر مفقودة].
- النقد الأدبي الحديث أسسه الجمالية ومناهجه المعاصرة رؤية إسلامية. (د.ت.). [بيانات النشر مفقودة].